في المعجمية العربية

د. عبد القادر سلاّمي
جامعة تلمسان
الجزائر

الملخص: تهدف هذه الداسة إلى وضع مقدمة للقارئ العربي فيما يتصل بالمعجم العربي بقسميه اللفظي والمعنوي وبما يكفل الوقوف على دلالتي الإعجام والمعجم وحركة التأليف المعجمي عند العرب).

الإعجام والمعجم : ارتبطت مادة (عجم) في معاجم اللغة وكتبها بالإبهام والإخفاء وضدّ البيان والإفصاح.[1] وهي ثلاثة أصول:أحدها يدلّ على سكوت وصمت، والآخر على صلابة وشدَّة،والآخر على عضّ ومَذاقَة.[2] فمن الأوّل:رجل أعجمُ [*] وامرأة عَجْماء، إذا كانا بيِّنا العُجْمة لا يُفصحان ولا يُبِينَان كلامهما ،والجمع عَجَمُ .والعَجَمُ والعُجْمُ:الذين ليسوا من العرب،كأنّه تعذّر عليهم فهمهم فسمّوهم كذلك.[3] وصلاتا الظهر والعصر عجماوان ؛ لأنّه لا يجهر فيهما بالقراءة. [4] و في الحديث: (**جـــرْح العَجْماء جُبَار**)[5]؛ أي : لا دِيَة فيها ولاغُرْم ،لأنّ البهيمة لاتُفصِح عمّا في نفسها إذا أفلتَتْ من صاحبها فقتلت إنساناً. والأعْجَمُ: المُستعجِم الأخرس.[6] واستعجمت الدّار عن جواب السائل:إذا لم تُجِب سائلها.[7] ومن الثاني والثالث : عجمة الرَّمل بما استبهم على سالكيه فلم يتوجّه لهم[8] ومنه عَجَمْتُ العود ونحوه : إذا عضِضْتَهُ لِيُعْلَم صلابته من رخاوته ،ولك فيه وجهان : إن شئت قلت : إنّما ذلك لإدخالك إيّاه فيك وإخفائك له ؛وإن شئت قلت:إنّ ذلك لأنّك لّما عضِضْتَهُ ضغطت بعض ظاهر أجزائه فغارت في المعجوم،أي أدخلت بعضها في بعض،فأخفيتها [9] . وهكذا تتصرّف صيغة (فَعَلَ) من هذه

المادّة إلى معاني الإبهام وعدم الوضوح.أمّا صيغة (فَعَّلَ) بالتّضعيف و (أفْعَلَ)بالهمز،فإنّما تأتيان لتدلاّن عنى البيان والوضوح، فعجَّم الكتاب تعجيماً:نَقَطه كي تستبين عُجْمَتَهُ ويصِحُّ ويَضِحُ؛[10] ثمّ إنّهم قالوا: :أَعْجَمْتُ الكتاب:نَقَطْتُه وأَزَلْتُ عُجْمَته واستعْجَامَه وأوضحته، [11] فجاءت فعَّلْت (عجَّمْت)وأفعلت(أعجَمْتُ)محقّقتين لسَلْب معنى الاستبهام لإثباته وله نظائر. [12]

وعلى هذا فصيغة " مُعْجَم " اسم مفعول من " أَعْجَمَ " أو مصدر بمنزلة الإعجام.ومن معنى السَّلب (*) هذا أطلقت لفظة " معجم " على الكتاب الذي يراعي في ترتيب مادته ترتيب الحروف الهجائية ، فكأنّ هذا الكتاب يزيل إبهام هذه المادة المرتّبة على حروف المعجم،[13] أي حروف الإعجام التي من شأنها أن تعجم؛[14] ومن ثمّ ، فإنّ المفردات الواردة في " المعجم " قد شُرحَت بما يكفل إزالة اللُّبس عنها ويوضّح المبهم منها.[15] والمعجم بهذا ترتيب حروف وسوق مفردات وفق ذاك وإزالة عُجمة [16].وهو في عرف المحدثين كتابٌ أو مرجعٌ أو فَهْرِسٌ أو ديوَانٌ يشتمل على أكبر عدد من مفردات لغة ما مع تفسير معنى كلّ منها وذكر معلومات عنها من نُطْقٍ وصيغٍ واشتقاقٍ ومعانٍ؛ ومرتّبةً ترتيباً خاصّاً على حسب حروف الهجاء أو الموضوع، فالكلمة هي المحور الذي يدور حوله المعجم إيضاحاً وشرحاً تعدُّدَ الفروق القائمة بين المعاجم.[17]

ومهما تباينت الآراء حول المعجم في درجة إيفائه بالمعنى الاجتماعي أو الدلالي وجلائه للمعنى المعجمي أو قصوره عن ذلك [18]، فإنّ المعجم يبقى من أنجع الوسائل القديمة والحديثة للحفاظ على اللغة"في ماضيها وفي حاضرها المتجدّد، وما يلحقها من تطوّر في أثناء تفاعلها مع غيرها من اللغات ، عبر مراحل عمر اللغة الاجتماعي".[19]

هذا ، ولا ندري على وجه اليقين متى أطلقت كلمة"معجم"في اللغة العربية على الكتب التي ترمي إلى جمع اللغة.[20]فالمعجم في عرف المبرّد (ت285 هـــ)مصدر بمنزلة الإعجام،كما تقول أدخلته مُدخَلاً وأخرجتُه مُخرَجاً أي إدخالاً وإخراجاً،أي من شأن هذه الحروف أن تُعجم .فكأنّهم قالوا:"هذه حروف الإعجام"، وهو الأصوب في رأي ابن جني (ت392 هـــ)و بعض المتأخرين من القدماء والمحدثين وفي رأينا من قولهم:"حروف المعجم" [*] بأن أضافوا الحروف إلى المعجم [21] فهل المعجم صفة لحروف هذه ، أو غير وصف لها ؟ وهو تساؤل حاول ابن جنّي الإجابة عنه،وتابعه في ذلك ابن سيده (ت458 هـــ) فقال : إنّ المعجم لا يجوز أن تكون صفة لحروف هذه من وجهين : أحدهما أنّ (حروفاً) هذه لو كانت غير مضافة إلى المعجم لكانت نكرة و"المعجم"معرفة،ومحال وصف النكرة بالمعرفة.والآخر: أنّ (الحروف) مضافة إلى" المعجم"ومحال أيضا إضافة الموصوف إلى صفته.والعلّة في امتناع ذلك أنّ الصفة هي الموصوف، على قول النّحويين، في المعنى وإضافة الشيء إلى نفسه غير جائزة؛ ألا ترى أنّك إذا قلت:ضربتُ أخاك الظريف،فالأخ هو(الموصوف) والظريف هو(الصفة) والأخ هو الظريف في المعنى . وإذا كانت الصفة هي الموصوف عندنا في المعنى ،لم يجز إضافة "الحروف"إلى "المعجم"، لأنّه غير مستقيم (إضافة الشيء إلى نفسه)، وإنّما امتنع ذلك من قِبَل أنّ الغرض في الإضافة إنّما هو التخصيص والتعريف، والشيء لا تعرّفه نفسه ؛ لأنّه لو كان معرفة بنفسه لما احتيج إلى إضافة، وإنّما يضاف إلى غيره ليعرّفه، فلو كان المعجم صفة لحروف لقلت : " المعجمة" كما تقول:تعلّمت الحروف المعجمة. [22]

ويبدو أن تسمية المعجم"ظهرت متأخّرة عند اللغويين،[23]وذلك عند

علماء القرن الرابع الهجري و في"معجم مقاييس اللغة"لابن فارس (ت395 هـ)تحديداً. (24)

ومعنى ذلك أنّ إطلاق المعجم على مثل هذا الكتاب مرّ بمراحل قبل أن يستقرّ مصطلحاً في كتب اللغة التي عُرفت بالمعاجم.أمّا إطلاق" القاموس" على المعجم ، فهو إطلاق متأخّر سببه شيوع (القاموس المحيط) للفيروزآبادي (ت 816 هـ) ومعناه"البحر العظيم"، إذ أصبحت كلمة " القاموس" تقابل في الاستعمال كلمة" المعجم"، فصار كلّ معجم قاموساً والأصل ذلك .(25)

(2)- التأليف المعجمي عند العرب :

اتّجه العرب إلى تأليف المعاجم التي تضمّ مفردات اللغة مشروحة ومرتّبة ترتيباً معيّناً.ويلاحظ الدّارس حين ينظر في تراث المعجمية العربية ، أنّ العرب فاقوا غيرهم قديماً وحديثاً في العناية بالمعاجم ، إذ تعدّدت طرقهم المنهجية في هذا المجال حتّى كادت تستنفذ جميع الاحتمالات.(26)

ومن المعروف أنّ جمع اللغة لم يكن قد تمّ حين ألّف الخليل كتاب" العين" فالرواة كانوا يجدّون في جمع شتات اللغة العربية وتدوينها في الرسائل الصغيرة بينما شرع أوائل النّحاة شرعوا في استنباط القواعد النّحوية والصّرفية.وهكذا لم تتأخّر الحركة المعجمية عن غيرها من ضروب النّشاط اللغوي،وبذلك يكون القرن الثّاني الهجري قد شهد بداية التّأليف المعجمي إلى جانب بدايات كثيرة للتّدوين (27).

وقد سلك التّأليف المعجمي عند العرب طرقاً مختلفة أهمها ثلاث رئيسة وهي:(28)

1- طريقة الترتيب الصوتي بحسب المخارج الصوتية والتقاليب والأبنية الصرفية.

2- طريقة الترتيب الألفبائي وفق أصول الكلمات بالنّظر إلى الحرف أو الأخير من الكلمة.

3- طريقة التّرتيب الموضوعي القائم على جمع المفردات ضمن حقول دلالية أو مجالات معنوية. فالطريقتان الأولى والثّانية تحيلان إلى معاجم الألفاظ[29] والثالثة إلى معاجم المعاني[30] .

ولهذه المعاجم في اللغة العربية ، ولا سيما الكبيرة منها،" فوائد أخرى يعرفها المتمرّس بهذه المعاجم حقّ المعرفة منها:ضبط الألفاظ، والإطّلاع على تطوّر بعض معاني المفردات من عصر إلى آخر،والكشف عن الأعلام والأشخاص والقبائل والأماكن وضبطها ، وتحقيق كثير من الشواهد والروايات المتضاربة " [31] .

الهوامـــش

(1) سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق حسن هنداوي ، دار القلم ، ط1،1985م ، ص 36 و الخصائص 3 / 75 .

(2) معجـــم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن زكريا بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطـــباعة و النشـــر و التوزيع، 1979م ،239/4،مادة (عجم) وينظر القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة فن الطباعة، مصر ، دت ،49/4 مادة(العُجْم).

(*) صـــيغت (أعجـــمُ) للدلالة على الذي لا يُفصح و لا يُبين ، على وزن غير غالب للصفة المشبهة باسم الفاعل بدلاً من الوزن الغالب لاسم الفاعل (عاجِم) ، وذلك حتّى تنسب صفة العُجمة إلى صاحبها على سبيل الثّبوت؛ وهو المراد من صياغته على وزن من أوزان الصفة المشبّهة، لاعلى سبيل التجدّد غير المراد من صياغته عـــلى وزن اســـم الفاعل (عاجم) الذي ينصرف معنى إلى العَاضّ على الشيء المُبْهَم. ينظر: العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد ،تحقيق إبراهيم السامرائي و مهدي المخزومي ، دار الرشيد للنشر،وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية،1980م،1 / 238، مادة (عجم).ينظر في أمر اسم الفاعل والصفة المشبهة باسم الفاعل : التصـــريح عـــلى التوضـــيح لخالد بن عبد الله الأزهري ،على ألفية ابن مالك لجمال الدين محمد بن هشام الأنصاري ، وبهامشه حاشيته ليس بن زين الدين العليمي الحمصي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دت ،2/81-82 وشـــرح حاشية ابن مالك لأبي عبد الله بدر الدين محمد ابن النّاظم ، تحقيق عبد الحميد السيّد

محمـــد عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، دت ، ص 444 و تصريف الأسماء والأفعال لفخر الدين قباوة ، مديـــرية الكتب والمطبوعات الجامعية ،جامعة حلب، ط2 ، 1401 هـــ - 1981 م ، ص 156-157 ، 167—169 . هـــذا ، ولم يجـــوّز ابن فارس قول من قال : " الأعجميّ : الذي لا يفصح وإن كان نازلاً بالـــبادية " (ينظر على سبيل المثال : القاموس المحيط ، 4 / 149 والحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق مصطفى الســـقا وحســـين نصار ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي،مصر، ط1958،1م ،207/1 ،مادة (عجـــم)،بل وعدّة مجانباً للصواب؛لأنّه لا يُعلَم أحدٌ سمّى أحداً من سكان البادية كذلك ، كما لا يسمّونه " عَجَمِـــياً " . "ولعـــلّ صاحب هذا القول أراد الأعْجَم فقال الأعجمي ." ينظر : العين ، 1 / 237 و معجم مقاييس اللغة ، 4 / 240 والمحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، 1 / 207 ، مادة (عجم) .

(3) الصّـــحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حمّاد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار ، دار العلم للملايين، ط3، بيروت، 1404هـــ- 1984م ، ص 1980، مادة (عجم) و العين ، 1 / 237 ، مـــادة (عجم) و القاموس المحيط ، 4 / 149 ، مادة (العُجم) و معجم مقاييس اللغة، 4/ 239- 240 وتهذيـــب إصـــلاح المـــنطق للخطيب التبريزي، تحقيق فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة،ط1، بيروت، 1403هـــ-1982م ، ص328 والمعجم الوسيط ، 2 / 586 ، مادة (عجم) .

(4) الصّـــحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، ص 1980 ، مادة(عجم) و معجم مقاييس اللغة ، 4 / 240 وســـر صـــناعة الإعراب ، ص 36 والعين،237/1 والخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني،تحقيق محمد علي النجّار، **دار الهدى للطباعة** والنشر، بيروت، ط2مصورة ، 1950 م ،77/2 .

(5) يـــنظر: **صحيح البخاري** لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري بحاشية أبي الحسن نور الدين محمد عبد الهادي السّندي ، **دار المعرفة** للطباعة و النشر، بيروت ، دت ، 4/ 193-194.

(6) **المحكم والمحيط الأعظم** في اللغة ،208/1 ، مادة (عجم) و الصّحاح تاج اللغة وتاج العربية، ص 1981، **مـــادة(عجم) و الخصائص** ، م 3 / 76 و سر صناعة الإعراب ، ص 36 والقاموس المحيط ، 4 / 149 ، **مادة (العُجْم) والمعجم الوسيط** لإبراهيم أنيس و آخرين ، دار الفكر ، بيروت ، دط ، دت. ، 2 / 586 ، **مادة (عجم) .**

(7) **العـــين، 1 / 238** و المحكم والمحيط الأعظم في اللغة،4 / 208 ، مادة (عجم) و الخصائص ،3 / 76 **والمعجم الوسيط ، 2 / 586** مادة (عجم)

(8) **الخصائص ، 3 / 75 و** سر صناعة الإعراب ، ص 37

(9) الخصـــائص ، 3 / 75 -76 وسر صناعة الإعراب ، ص36-37 وتهذيب إصلاح المنطق، ص 328، 521 و المعجم الوسيط ، 2 / 586 .

(10) العـــين ، 1 / 238 ، مـــادة (عجم) و الصّحاح تاج اللغة وتاج العربية، ص 981، مادة (عجم) و معجم مقاييس اللغة ، 4 / 240 والقاموس المحيط،4 / 149،مادة(العُجْم) و وسر صناعة الإعراب،ص 3

(11) تهذيب إصلاح المنطق، ص 521 والقاموس المحيط ، 4 /149 ، مادة (العُجْم) و المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ،1 / 209 ، مادة (عجم) والخصائص 3 / 77-83 وسر صناعة الإعراب، ص 38-39.

(12) ينظر: الخصائص ، 3 / 76 – 83 وسر صناعة الإعراب ، ص 39 .

(*) عقد ابن جني في خصائصه بابا (في السّلب) (ينظر: الخصائص ،3 / 75-83) ، فأسهب القول فيما ذهب إليه أستاذه أبو علي الفارسي، معلنا بذلك عن ميلاد نظرية متكاملة فيه تصدق على الفعل كما تصدق على الاسم " من قِبَل إنّ السّلب معنى حادث على إثبات الأصل الذي هو الإيجاب ، فلمّا كان السّلب معنى زائداً حادثاً لاقَ به من الفعل ما كان ذا زيادة ، من حيث كانت الزيادة حادثة طارئة على الأصل الذي هو الفاء والعين واللام "(ينظر : نفسه ، 3 /80).وملخّص هذا القول إنّ السّلب من الناحية الاصطلاحية يتلخّص في أنّه" زيادة تطرأ على الكلمة فتكسبها معنى مضادّاً لما هي عليه معاني أصل المادة وقد تكون هذه الزيادة : حرفاً ، أو تضعيفاً ، أو حركة ،فيحوّل المعنى بواحدة منها إلى الضدّ ".(ينظر: مبحث في قضية الرمزية الصوتية – طبيعة العلاقة وما ترمز إليه- لبدراوي زهران ، دار المعارف ، ط2 ، 1987م ، ص221). ومعنى ذلك أنّ كلّ زيادة في المبنى إلاّ وتحدث زيادة في المعنى ، ما عدا حروف الإلحاق . على أنّ السّلب يطرأ على الفعل كما يدخل على الاسم ،فقد رأيناه يتحقّق في الفعل كالزيادة التي طرأت على الأصل المجرّد (عجم) التي تعني الاستبهام إلى(عجّم) و(أعجَم) اللتين تعنيان الاستبانة على نحو ما رأينا . أمّا ما يتحقّق فيه السّلب من الأسماء ، فقولهم:" التَّوْدية"على وزن التّفعلة من فعل(ودى) الذي يعني السّيلان والجريان؛إلاّ أنّها استعملت للعود الذي يمنع اللّبن من الجريان ؛ فهي إذاً تزيل الوَدْي ولاتثبته. ينظر: نفسه،3/ 78 .

(13) المعجم العربي نشأته وتطوره لحسين نصار، دار مصر للطباعة ، دت ، ص 11 .

(14) سر صناعة الإعراب ، ص 36 و الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، ص1981 و القاموس المحيط ، 4 / 149 ، مادة (العُجْم).

(15) المعجم العربي بحوث في المادة والمنهج والتطبيق ، لرياض زكي قاسم ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان،ط1 ، 1407هـ - 1987م ، ص 14 .

(16) ينظر : سر صناعة الإعراب ، ص 39 .

(17) علم اللغة العام لتوفيق محمد شاهين ، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة، 1400هـ-1980م، ص 165-166والمعجم العربي بحوث في المادة والمنهج والتطبيق ، ص 14 ، 19 و المعجم العربي لعدنان الخطيب ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء 1 ، المجلد 40 ، 1384هـ -1965م ، ص 203 ومناهج البحث في اللغة لتمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ،المغرب ، 1400هـ- 1979م ، ص 258 ومقدمة لنظرية المعجم لإبراهيم بن مراد ، دار الغرب الإسلامي ، ط1، 1997 م ، ص 37 .

(18) ينظر : دلالة الألفاظ ، ص 106 ومناهج البحث في اللغة ، ص 258 –266 واللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، دت ، ص 312- 334 وعلم اللغة مقدمة

للقارئ العربي ، ص 263-271 و المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث لمحمد أحمد أبو الفرج ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،ط1966،1م، ص 94- 100 و المعجم العربي بحوث في المادة والمنهج والتطبيق ، ص 19- 20 و المجاز وأثره في الدّرس اللغوي لمحمد بدري عبد الجليل، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،بيروت، 1406هـ-1986م، ص 156-168ومقدمة لنظرية المعجم ، ص 21-36 و عوامل تنمية اللغة العربية لتوفيق محمد شاهين، مكتبة وهبة ، ط1، القاهرة، 1400هـ- 1980م،ص157-163 وعلم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السّامية لمحمود فهمي حجازي، وكالة المطبوعات ، الكويت، 1973م، ص 302-306 ومصادر نقد الرواية في الأدب الحديث في مصر لأحمد إبراهيم الهوّاري ، دار المعارف، ط1، 1979م، ص 66.

(19) المعجم العربي بحوث في المادة والمنهج والتطبيق ، ص 20 .

(20) إذا كان من غير الممكن معرفة أول من أطلق كلمة " معجم " على الاصطلاح المذكور ولا أوّل كتاب سمي" معجماً" فيكاد يكون من المتّفق عليه أنّ رجال الحديث ، والقرّاء والشرّاح ، وجامعي أثر الصحابة هم الأوائل الذين ألّفوا الكتب بترتيب حروف الهجاء مستخدمين عبارة " حروف المعجم " وفي مقدمتهم أبو يعلى الموصلي (ت 307 هـ) صاحب كتاب " معجم الصحابة "، وأبو القاسم البغوي (ت 317 هـ) مؤلّف كتابين في أسماء الصحابة سمّاهما : " المعجم الكبير " و " المعجم الصغير" . كما ألّف أبوبكر النقّاش الموصلي (ت351 هـ)" المعجم الكبير في أسماء القراء وقراءاتهم ". وكان الإمام البخاري (ت256 هـ) في" التاريخ الكبير " قد سبقهم إلى ترتيب رجال الإسناد والحديث على حروف المعجم ، غير أنّه لم يسمّه معجماً. ينظر: الفهرست ، ص 162- 163 و المعجم العربي نشأته وتطوره ، ص 13 - 14 و الدراسات اللغوية عند العرب ، ص 220- 221 والمعجم العربي بحوث في المادة والمنهج والتطبيق ، ص 16-18 والمعجم العربي ، ضمن مجلة المجمع العلمي العربي ، ص 200-202 . ويبدو"أن الناس استطالوا عبارة (كتاب كذا على حروف المعجم لفلان) فاختصروها وساروا في طريقين : قالوا: كتاب كذا على الحروف لفلان ، بحذف كلمة المعجم ، وقالوا : معجم كذا لفلان ، بحذف كلمة حروف وتغيير ترتيب الكلمة" . ينظر : المعجم العربي نشأته وتطوره ، ص 13 والمعجم العربي بحوث في المادة والمنهج والتطبيق،ص 16.

(*) ذهب الخليل إلى أنّ حروف المَعْجَم بالتخفيف ، هي الحروف المقطّعة ؛ لأنّها أعجمية .ينظر: العين ، 1 / 238 ، مادة (عجم) ومعجم مقاييس اللغة ، 4 / 240 ، مادة (عجم) . ويظنّ ابن فارس أنّ الخليل أراد بالأعجمية أنّها ما دامت مقطّعة غير مؤتلفة تأليف الكلام المفهوم ، فهي أعجمية ؛ لأنّها لا تدلّ على شيء. ينظر: نفسه، 4 / 240-241، مادة (عجم) .

(21) ينظر: الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ص 1981 – 1982، مادة (عجم) و سر صناعة الإعراب ، ص 33-34والمحكم والمحيط الأعظم في اللغة ،1 / 208 مادة (عجم) و معجم مقاييس اللغة ، 4 / 241 و المعجم العربي نشأته وتطوره ، ص 11 و المعجم العربي بحوث في المادة والمنهج والتطبيق ، ص 14 .

(22) سر صناعة الإعراب،ص 33-34 و المحكم والمحيط الأعظم في اللغة 1/ 207-208 و المخصص لأبي الحسن علي بن سيده ، المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة، 1317هـ-1321هـ ، 2 / 42. وقال ابن سيده : "فإن قيل : إنّ جميع هذه الحروف ليست معجماً ، إنّما المعجم بعضها ، ألا ترى أنّ الألف والحاء والدال ونحوها ليس معجماً ، فكيف استجازوا تسمية جميع هذه الحروف حروف المعجم ؟ قيل له: إنّما سميت بذلك ؛ لأنّ الأشكال إذا اختلفت أصواته ، فأعجمتَ بعضها ، وتركت بعضها ، فقد عُلِمَ أنّ المتروك بغير إعجام ، وهو غير ذلك الذي من عادته أن يُعجَم ، فقد ارتفع أيضاً بما فعلوه الإشكال والاستبهام عنها جميعاً ، ولا فَرْقَ لأن يزول الاستبهام عن الحرف بإعجامه عليه ، أو يقوم مقام الإعجام في الإيضاح والبيان ، ألا ترى أنّك إذا عجمت الجيم بواحدة من أسفل ، والخاء بواحدة من فوق ، وتركت الحاء عُفْلاً ، فقد عُلِمَ بإغفالها أنّها ليست بواحدة من الحرفين الآخرين ، أعني الجيم والخاء ، وكذلك الدال والذال ، والصاد والضاد ، وسائر الحروف ، فلماّ استمرّ البيان في جميعها ، جاز تسميتها :" حروف المعجم ". المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ،1 / 208 ،مادة (عجم).

(23) على أنّ من الدارسين المحدثين من لا يستبعد أن يكون استخدام المصطلح في اللغة قد رافق استخدامه في معجمات الصحابة والشيوخ السابق ذكرها ، لاشتراك معاجم اللغة مع تلك في ترتيب موادها على الحروف،(ينظر : المعجم العربي نشأته وتطوره ، ص 14)؛ ثم أخذت كلمة (معجم) تقترب شيئاً فشيئاً من دلالتها المعروفة لدينا الآن.فإذا صحّ هذا الافتراض ، فيكون ذلك في حدود أوائل القرن الرابع الهجري ، أي في زمن ظهور معجم الصحابة لأبي يعلى التميمي (ت 307 هـ) والمعجمين الكبير والصغير لأبي القسم البغوي (ت 315 هـ).(ينظر : الدراسات اللغوية عند العرب ، ص 221). وذهب آخرون إلى ترجيح الافتراض القائل: إنّ الجماعة اللغوية أخذت من العلماء المشتغلين بالحديث والتراجم والشرّاح والقرّاء كلمة (معجم) وأطلقتها على الكتب اللغوية التي تعالج اللفظة ، وتحدّدت دلالتها وما يتّصل بها لغوياً أو تلك التي تجمع الألفاظ المتصلة بموضوع واحد، أو رسالة،أو كتاب،أو باب من كتاب؛ فتمّ بذلك استعمال كلمة (المعجم) – أوّلاً – على يد النسّاخ والورّاقين أو سئ يد من دوّن عن أعمال المشتغلين بمتن اللغة بعد القرن الرابع الهجري ، ويدلّ أنّ مصنّفات اللغة الصادرة حتّى نهاية ذاك القرن نحو "الجمهرة " لابن دريد (321 هـ) و"الصحاح" للجوهري (ت 398هـ) لم تحمل في عناوينها – كلّها – كلمة (معجم) ، وليس في مقدّماتها أيضاً ما يشير إشارة واضحة إلى استخدام هذا المصطلح . دون أن يعني هذا – ضرورة – جهل أصحاب تلك المعاجم أو المشتغلين بمتن اللغة من مفردات ، وما يختلف عليها من ظواهر ، وما تدلّ عليه المعاني، واستعمال الكلمات في حقول دلالية معينة ممّا تشتمل البيئة العربية الصحراوية بظواهرها الطبيعية أو النباتية ، أو الحيوانية وغيرها .(ينظر: المعجم العربي بحوث في المادة والمنهج والتطبيق ، ص 17 – 18) . وإذا كان لنا أن نبدي رأياً في بدء استخدام لفظ " المعجم " في كتب اللغة ، وسبب انزوائه عن كتب طرقت موضوعه دون أن تتّخذه عنواناً دالاً على مضمونها ، فإنّنا نرجّح ترافق استخدامه في اللغة مع استخدام كتب الصحابة لها دون فارق زمني يذكر، لما يكتمل ترتيب موادّها على حروف المعجم ، ودون أن يكون في مقدور مصنّفي المعاجم قبل ابن فارس وبعده التحرّر على إطلاق لفظ " المعجم " على كتاب تعفّف الخليل (ت175 هـ) نفسه في إطلاقه على ما أنجزه

عـــلى غير مثال سابق لتعذّر حصر كلّ مفردات اللغة العربية ؛ (ينظر: الصاحبي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها لأبي الحسين أحمد ابن فارس، تحقيق عمر فاروق الطباع،مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1414 هـــ-1993 م ، ص 49) الأمـــر الذي لا ينفي عدم وضوح المصطلح نفسه عند المتقدّمين من الفقهاء أو اللغويين على نحو ما دلّلنا عليه بالأمثلة .

(24) وتجدر الإشارة هنا إلى أن عبد السلام محمد هارون أشار إلى "خمول ذكر هذا الكتاب بين العلماء والمؤلفين، نظـــراً إلى كونه من أواخر الكتب التي ألّفها ، ولو أنّه أتيح له أن يحيا طويلاً في زمان مؤلّفه لاستولى على بعض الشهرة التي نالها صِنْوه" المجمل" (ينظر: مقدمة تحقيق معجم مقاييس اللغة،1/ 39 ،41) .والجدير بالذكر أن ابن النديم (ت بعد 377 هـــ) نشاه(أثنى عليه) نذكر أنّه لم يصنّف مثله.ينظر: الفهرست لمحمد ابن إسحاق النديم، تحقيق مصطفى الشويمي،الدار التونسية للنشر، تونس،و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1406هـــ-1985م،ص365.

(25) القاموس المحيط ،3/1و المعجم العربي نشأته وتطوره ، ص 14 والدراسات اللغوية عند العرب ، ص 222 ومصادر التراث والبحث في المكتبة العربية لمحمود فاخوري ، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ، جامعة حلب ، 1409هـــ - 1989م، ص71 ، والمعجم الوسيط ، 2 / 758 ، مادة (قمس) .

(26) مصادر التراث والبحث في المكتبة العربية، ص 71.

(27) مدخل إلى فقه اللغة العربية، ص174.

(28) المدخـــل إلى فقـــه اللغة ، ص 174و ينظر: المعجم العربي نشأته وتطوره، ص 23-24 و نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، ص 12-45 و والمعاجم العربية دراسة تحليلية لعبد السميع محمد أحمد ، دار الفكر العربي ، ط2، 1393هـــ-1973م ، ص 18-19.

(29) تســـمى في عرف ابن سيده بالمخَصّصة.(ينظر:المخصص،10/1). ويقصد بها تلك المعاجم التي تعالج اللفظة تضـــبطها،وتبيّن أصـــلها ومشتقاتها ، وتشرح مدلولها ، وتتّخذ لها منهجاً خاصاً في ترتيب الألفاظ معتمداً على الترتيـــب الهجائي أيّاً كان لون ذلك الترتيب ومداره ، سواء أتى حسب نظام مخارج الحروف ، كما صنع الخليل ومـــن لفّ لفّه ، أو سار حسب الأبجدية في ترتيبها المألوف ، كما نجد في معاجم من سار على غير طريقة الخليل .ينظر: المعاجم العربية دراسة تحليلية ،ص18. ويُدَلُّ بها على مظنّة الكلمة المطلوبة.وهذا النّوع من المعاجم يعتبر مبدئياً في الكشف عن لفظ من الألفاظ بجهل معناه كلّ الجهل،أو نعرفه بشكل غامض ونودّ أن نعرفه بشكل دقيق .ينظر: نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، 10.

(30) وتعدّ من كتب الصفات ؛ لأنّها حاولت أن تجمع ما أمكنها من موضوعات،ومن هنا جاء اسمها. فقد أُلّفت كثير من الكتب السابقة ككتب ابن الأعرابي(ت231هـــ)في"صفة النخل"أو"صفة الزّرع"أو"صفة الدِّرع".(ينظر الفهرست، ص 314. علما أن ابن النديم أورد اسم " الصفات" وصفاً لكتاب النضر بن شميل(ت203هـــ) لمّـــا قال: وهو كتاب كبير يحتوي على عدّة كتب ، ومنه أخذ أبو عبيد القاسم بن سلاّم كتابه غريب المصنف بينّ كما حوته أجزاؤه الخمسة من موضوعات وقد تصدّرها على الترتيب :خلق الإنسان ، والأخبية، والإبل والخ

والـــزرع، وغيرها. ينظر: الفهرست، ص 234-235) ، فجاءت الكتب أن تجمع الصفات المختلفة من نخل، وزرع، ودرع، وغيرهـــا؛ وسمّيـــت أيضاً بـِ"الغريب المصنّف"،وهو مصطلحٌ يحمل الدلالة نفسها. (ينظر:المعجم العربي نشأته وتطوره، ص206 وينظر: رواية اللغة لعبد الحميد الشلقاني دار المعارف بمصر، القاهرة، ص 135-136. ويطلق عليها في علم الدلالة العربي الحديث اسم المعاجم المتجانسة،ويطلق عليها أحياناً تسمية المعـــاجم الموضـــوعية،أو معـــاجم تداعي المعاني ، أو حقول المعاني.(ينظر:المعجم العربي بحوث في المادة والمنهج والتطبـــيق، ص 29وينظر: علم اللغة العربية، ص 113).و يتّجه معجم المعاني من المعنى إلى اللفظ ويرتّب ألفاظ اللغـــة ،في معظمها ، بحسب معناها لا بحسب لفظها . فالترتيب فيها ليس أبجدياً ولكنّه موضوعي ، بمعنى إنّ هذا النـــوع من المعاجم يلجأ إليه الباحث عندما يستعصي عليه لفظ يوافق المعنى الذي يدور في خلده. فكثيراً ما يقف الكاتب حائراً لايدري كيف يعبّر عن أحد المعاني أو المدركات الحسية، وكثيراً ما يستعصي عليه تركيب مرادف لمعـــنى يجـــول في ذهنه.(ينظر: نظرة تاريخية عن حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب،ص 52) فيلجأ إلى المترادف والمتوارد اللذين يندرجان في معاجم المعاني.(ينظر: المعجم العربي بحوث في المنهج والمادة والتطبيق ص 29).

(31) نظـــرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في واللغة الأدب ، ص11.و يرى أحد الدّارسين المحدثين وتابعه في ذلـــك عـــبد السميع محمد أحمد أنّه من المرجّح أن يكون اللغويون قد سبقوا إلى "المعاجم المبوّبة" أو "معاجم المعاني" أو " معاجم الموضوعات" قبل أن يسبقوا إلى " معاجم الألفاظ" ؛ لأنّها في رأيهما" تمثّل أبسط أنواع الجمع وهـــو أمر طبيعي ، دعت إليه الحاجة والخوف من ضياع اللغة، وهو من السهولة بحيث لا يحتاج إلاّ إلى الحفظ والإلمام بأطراف الموضوع للوقوف على أجزائه ومسمياتها "(ينظر: المعاجم العربية دراسة تحليلية، ص18-19). وبناءً على ما تقدّم، فإنّه من الطبيعي أن يبدأ الحديث بها ؛ ذلك لأنّ جمع اللغة العربية جرى على مراحل ثلاث يمثّل مرحلتها الأولى: جمع الكلمات حيثما اتّفق . فقد كان هذا العالم أو ذاك يرحل إلى البادية ليسمع كلمة في المطر وأخرى في اسم السيف ، فيدوّن ذلك كلّه حسبما سمع ، من غير ترتيب إلاّ ترتيب السّماع. وقد كان ذلك بفضل الـــرواة منذ أواخر القرن الأول وأثناء القرن الثاني، أي في الوقت الذي كان يجري فيه جمع الحديث والأدب. أمّا المرحلة الثّانية ، فقد شهدت ميلاد رسائل وكتيّبات صغيرة مبنية على معنى من المعاني أو على حرف من الحروف ككتـــاب أبي الأنصاري (ت215هـــ) في" المطر" و"اللّبأ واللّبن".وأمّا المرحلة الثالثة، فعرفت وضع معجم يشمل كـــلّ الكـــلمات العربية على نمط خاص ليرجع إليه من أراد البحث عن معنى كلمة أو لفظة دالّة.(ينظر: المعجم العـــربي نشأته وتطوره، ص22-23 و نظرة حول حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب ، ص 11-27). والتي مـــراحل رآها أحمد أمين طبيعية لجمع اللغة ، و لا يعكّر صفوها أنّ الخليل(100- 175هـــ)، واضع الفكـــرة الثالثة، كان الأسبق زمناً من أبي زيد - ببضعٍ وتسعين عاماً- والأصمعي(122-216هـــ). فقد عاش الخليل زمـــناً طويلاً ، وربّما سبق الأصمعي وأبا زيد بالتأليف في المفردات ؛ ولكنّه مع كونه واضع الفكرة لم يستطع أن يملأها وينفّذها من قارَبَه في الزّمن مثل الأصمعي وأبي زيد ؛ لأنّ فكرته كانت طفرة في التفكير ، وقد

جاءت قبل زمانها ، فلم يستطع أن يملأها وينفذها إلاّ من أتى بعده وبعد الأصمعي وأبي زيد. ولهذا لاتزال فكرة التسلسل معقولة صحيحة.(ينظر: ضحى الإسلام، لأحمد أمين، دار الكتاب العربي ط10، بيروت لبنان، 263/2 ،270). غير أنّ حسين نصّار اشترط في موافقته فكرة التسلسل هذه أن تكون هذه الأبحاث قد نشأت منفردة غير متّصلة بأيّ نشاط آخر، وهو ما تنكرهُ الاثار الباقية الرائدة التي عرفت باسم " غريب القرآن ولغاته" وما شابه ذلك. يضاف إلى ذلك أنّ بلوغ الخليل إلى فكرة وضع المعجم كافٍ للقول بأنّ الأبحاث الغوية وصلت إلى مرحلة المعاجم ، حتى في حالة عدم استطاعته تنفيذ الفكرة وتركها لأحد تلاميذه. كما نفى أن يكون الأصمعي وأبو زيد واضعي الفكرة الثانية، لكونهما سُبقا إليها من كثيرين أهمّهم أبو خيرة الأعرابي (ت157 هـ) أستاذ الخليل وصاحب كتاب الحشرات.(ينظر: الفهرست، ص 211 وبغية الوعاة لجلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت ، 317/2). وعلى هذا ففكرة التسلسل في نظر حسين نصّار معقولة صحيحة نظرياً لاعملياً. أمّا المراحل التي قطعتها الدراسات اللغوية فعلاً ، فتختلف عن ذلك في المرحلة الأولى مع مراعاة ما داخلها من خلط في التأليف حول القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف و في النوادر وغيرها ، وتقرّ بوجود المرحلتين الثانية والثالثة ، مع وجود فواصل كبيرة بين مرحلة وأخرى ، وعدم تبنّي كلّ مرحلة تماماً لضياع هذه الكتب الأولى، وعدم انقضاء كلّ مرحلة بظهور تاليتها؛ إذ بقي المؤلّفون يخرجون من الكتب ما يوضع تحت المرحلة الأولى أو الثانية حتى عهود متأخّرة ، وربّما تمتدّ إلى عهدنا الحاضر.(ينظر: المعجم العربي نشأته وتطوره، ص 34-35). و هو ما ذهب إليه أمجد الطرابلسي حين أقرّ بأنّ جمع ألفاظ اللغة العربية جرى على مراحل ثلاث، وإن شئت فقل على أشكال ثلاثة ؛ لأنّ هذه الأشكال هي في الحقيقة متداخلة متعاصرة وليست مراحل متعاقبة تحدّها الفواصل الزمنية السابقة . (ينظر: نظرة تاريخية حول حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، ص11). فبعد هذا الذي سقناه دلائل على أصالة معاجم الألفاظ في نسبة فكرتها الرائدة إلى الخليل فإنّنا لا نملك إلاّ أن نبدأ بها الحديث ، ثمّ نتبعها بمعاجم المعاني.